

السَّرابُ وَالْبَحْرُ

قصة بقلم فائز محمود

الفقر ان يمنعنا من الحصول على الكتاب ، ومن الفهم . ولكنه يحسنا كالتبات في تربتنا . المقياس المصري الوحيد لاختيار مدى تقدم كل شعب في الحاضر ، مدى شيوع السياحة لديه .

((هذا هو ملهى سناء)) . . . أنتبق امام ناظره بدون تعمد ، يتوهج ويتلألأ بالانوار الملونة . . . كان الوقت بعد الغروب ، اذ بسدت فسحة السماء الضيقة في الاعلى غائمة وقد انطمت خلف شعاع الانوار المتعالية التي تبعث من اضاء الشوارع الساطعة . . . ((ترى كيف هي سناء الان ؟ ستفاجأ بقدمي . لكن ياسناء كنت جارك المصذب بجحيم صدك ، بينما كنت تششرين اريج وصالك على الاخرين البعيدين . كان الحق علي لسوء تصرفي ، لكنني سأستدركم افات)) . . . كاد يتراجع بعدما خطا داخل الملهى . . . نبع نور يهور ويفيض بسحر الالوان ، وبالوسيقى ، وباهرامات زجاجات الخمر الانيقة ، وبالفاوكه المنسقة الترتيب ، وبالبحور . . . احتضنته وهو في موقفه المتردد مذلاح على الباب احدي حوريات الملهى . . . قال متلعثما :

- لطفاً ، ابحت عن فتاة اجنبية قدمت من مدة اسمها سناء . . .

دفعته امامها ، وبعدما تفحصته ركزت نظرها على وجهه وفهقتها وهي تدعوه للجلوس في احد اركان الملهى . . .

- من فضلك ، اود ان اخرج ان لم تكن سناء موجودة . . .
وفجأة . . . ((ما هذا)) . . . هتفت مرحة به ، واقبلت تهتادي بمسيرة مثيرة مملوءة حيوية ، شعرها مقصوص ، وتلبس ميني جيب يرتاليا . . . دعيه ياماجولين . . . اهلا محمود .

✱

كان بعد حوالي ساعة يخرج من الملهى . . . ولقد ظل يفكر في الطريق اهو قد اخطأ اذ قابلها كصديق . . . ((على كل كانت هي البادئة)) . . . استقبلته باحترام اخوي وقدمت له ((البيرة)) على حسابها ، وبعد قليل استأذنت منه لاكمال شغلها . . . جلس وحيدا في مكان فيه كل رجل تناديه امرأة بفحاشة . . . ولقد كانت غريزه باردة وقد سيطرت افكاره على ذاته . . . أخذ يحاول استراق النظر لمشاهدة سناء ، فابصرها بعدة مواقف مثيرة مع الزبون . . . اشتعل هياما بها . . . وجد غريزه لا تثيرها سوى سناء . . . وتذكرها قبل ان تسافر الى هنا ، وهي جارته . . . لقد تغيرت كثيرا . . . انها الان انيقة جدا وتحسن الاتيكيت ، وتبدو باهرة الجمال والافراء . . . هناك كانت باستمرار لا تبدل ثوبها الوحيد الكالنج الالون من قدمه ، وشعرها الاسود الفاحم يتهدل ليلا ساكتا رائعا على قامتها المشوقة الريانة . . . كان يتطلع اليها بوله ، وهي تجلس امام الباب ، او وهي تخرج او تدخل ، دون ان يزيد على ذلك . . . بل ان تطلعت هذه كان يسترقها من خلف الكتاب الذي يكون منهكما في مطالعته . . . وسخر اذ تذكر انها اكثر ما اثارها فيه انشغاله الدائم بالمطالعة وكثرة الكتب التي يمتلكها . . . وعلق في نفسه وقد لاحظ ذلك الان لأول مرة ! ((لقد اساء هذا العرض لي اذ سموت في نظرها فوق العلاقات العامة التي تربط الرجل بالمرأة)) . . . زيادة على ذلك ، كانت انعام تحلق به فوق كل هوة يكاد يسقط بها ، مع أنه لم يكن يستطيع ان يراها الا كل اسبوع مرة ، يوم العطلة . يتلاقيان كالمراهقين في السينما ، اذ لا مكان ممكن سواه . . . مرت اعوام ولا زال ينشد ان يتقدم في عمله ليفقد كفوًا للزواج من انعام .

كان خارج ذاته كلية . . . كل شيء كان مدهشا رائعا يخلب له: السيارات الفارحة ، دور السينما ، الشوارع ، الملاهي ، الناس . . . انه في عالم آخر تماما ، عالم لا يمت بصلة الى ذلك العالم الذي يكتنفه في بلده . وهو هناك قد تقوقع على نفسه بحرية ، أما هنا فيود لو يمكنه ان يحتضن هذا العالم الذي ياباه لهمجيته .

((أنا همجي ؟)) . . . وتطلع محمود الى الناس من حوله ، تسير بصنمية رنية في غاية النظافة . . . كان هو يبحث عن فندقه الذي يحل به ، ولم يكن قلقا لعدم استدلاله عليه بسرعة فانه يدره بانه يحوم الان بتخومه ولن يلبث ان يهتدي اليه . . . وجذب انتباهه في احدي المكتبات كتاب قرر شراءه . . . ((النساء هنا انيقات جدا ، يدون كانهن يطرن بملابسهن النقصيرة كالاجنحة)) . . .

راجع في مفكرته عنوان (سناء) جارتها التي سافرت الى هنا من قبل عدة شهور ، وعلم انها اشتغلت بملهى . رطن في صمت باسم الملهى الاجنبي الذي لم يعرف معناه ، وفي نفسه عزم على زيارتها مساء الغد . هذا أول يوم يقضيه في هذه المدينة التي تسحره ، ولقد امتعض في سريره اذ وجد انه مبهور باشيياء لم ترد بكل تلك الكتب التي امضى عمره في مطالعتها . . . ((حقا اني همجي رغم كل ما قرأت)) .

واكتشف فندقه بمواجهته وهو يسير ، فاقبل عليه بود . . . جلس امام شرفته المطلة على الشارع ، واخذ لامد غير قصير يتمن في المشاهد التي تبدو لناظره من هناك . . . سيكتب بعد قليل رسالة لرفيقته انعام ، واذا خطرت على باله شعر بخنين عارم لها . تمنى لو كانت الان معه لتتفرغ على هذه الدنيا الجديدة . هناك كان كل لقاء يتم بينهما محفوفًا بالاحطار والخاوف . سيحضر لها معه هدية . ماذا يجب ان تكون ؟ فكر قليلا ، ثم رأى ان يرجى ذلك الى ما بعد .

لقد كان مشتاقا لصديقه (رشاد) ، تكن حاجته اليه بدت الان اكثر الحاحا . بدونه سيلاقى صعوبات جمّة . وهكذا رأى محمود ان يتصل به فوراً . اتصل بمكتب ((الجريدة)) التي يعمل بها ، فلم يجده . ولم يعد امامه سوى الانتظار الى الغد .

ياغاليتي انعام : اجد جيك امن واكثر صميمية مما كل ما في وجودي الذي يهتئ هنا . في هذه المدينة لا يوجد فقرأ ، اذلهم يموتون حالا او ينفون الى الخارج . لا يوجد وقت للتأمل ، اذ العروضات تستحوذ على الانتباه . ارجو ان تكون معا في الاجازة القادمة .

وضع رسالته في جيبه ، وقد غدت جاهزة للارسال في البريد . . . شعر بالحاجة الى الطعام ، ففادر الفندق . . . كل شيء بدا متعبا : قطعه للشارع الذي يخضع لنظام لم يتعوده ، اللهجة التي يتخاطب بها معه الناس ، العملة النقدية المتداولة ، حتى طريقة تناول الطعام التي لا يتقنها .

لم يكن يشعر بالارهاق وبالكلل وهو يضيع في متهات متتالية عبر الشوارع . وكانت الاشياء كلها ، التي تتراعى على الجنبات ، تخطف بصره . . . ((المدينة بمجملها معرض كبير)) . . . واستتلى يفكر في دخيلة نفسه : ((حقا ان الحضارة الحديثة تضع الثقافة في متناول حتى افقر الناس ، لكن يظل الفارق في الواقع موجوداً . لا يستطيع

والدها يستصغر شأنه . وكفه خالية الوفاض من المال اللازم . والزمن يجري ، من يدري ولا يقبل الخاطب الا وقد نضج ، اذ يفنقر الزواج الى الانسانية التي تمنحه مصيرية الكفاح المشترك للزوجين ، من يدري اذن ايها ، يا بني قبالا : نمجحه العيشي المطلوب ام ذبول شبابه ؟ بلغ فندقه في منتهى الاعياء . قبال ان يفغو استرجع بشكل مضطرب حديث سناء له .. تواعد معها على اللقاء عصر الغد في نفس الملهى .. سكر لجمالها المذهل ، ومن زجاجة البيرة الثانية التي شربها باكره بسرعة . مكثت معه ربع ساعة لم يجرؤ خلالها على تحطيم ذلك الاجلال الذي ظل يعمر قلبه ازاءها . استععر شوقا ، وفي نفسه عقد العزم على تدمير هذه الرهبة في الغد .. ولقد قام اليوم بمناورة لا بأس بها في هذا الشأن ، رغم بساطتها .. نظر اليها بحنان وبشوق غير متكلف ، قال وصوته يتهمج رقعة وانفعالا وآسى :
- أنت رائحة الجمال ياسناء . اذكرك جميلة ، جميلة جدا ، لكنني اجدك الان فوق كل وصف . احبك ..

أجابت وهي تتمتع في قسمات وجهه بجديفة :

- احقا انك تراني جميلة الى هذا الحد؟ .. تزوجني .. آه

نسيت انك تحب انعام ..

وأردفت وقد اطلقت ضحكة مثيرة خلعت له :

- دعك من التفضيل يا محمود .. لكنني اعجب لم أرهقت نفسك

بالبحث عني ، ومعرفة عنواني !

★

دوما كلما قابل صديقه رشاد يشعر تجاهه بمحبة عميقة اكبر من التناقضات العظيمة التي تخلخل العالم البشري . كل شيء فيه يعكس روحه الطيبة ، ورحابة افقه النفسي .. لهذا أوجز له بدون مقدمات الجهات التي يرغب التوجه اليها هنا :

- اولاً حواء ، ثم المدينة ، ثم البحر ..

كانت (ليلى) هي حواء ، المفاجأة التي زفها اليه صديقه رشاد في مسكنه .. حينما اختلى بها اول مرة كان في منتهى الحرج تطلع اليها وقد استلقت على السرير ، فشعر تجاهها بالاضافة الى الرغبة العميقة الساكنة ، بمودة لكانها حصيلة الف عام ماض منسي .. وتحسبها بقدرسية ، كل ما فيها ثمين رائع لذيد .. واجرى معها العملية بطهر بالغ ، كان يؤمن انه يؤدي صلوات الحياة الكونية التي فرضت على جنسي الانسان .. ونهض وهو يشعر تجاهها بامتنان لامتناه ، ود لو كان بإمكانه ان يعبر لها عن احساسه هذا لكنه لم يفعل سوى ان طوح ببصره نحوها وهي تتطلع اليه ، بنظرة اودعها كل هذا الذي يحول بخاطره .

في المرات التالية ، فيما بعد ، زالت الكلفة بينهما .. كانت امرأة ناضجة العمر والجسد ، يبدو انها جاوزت الثلاثين عاماً ، بيضاء ملفوفة القوام انيقة بريئة الوجه . كانت تحضر بعربتها الخاصة الى منزل صديقه رشاد . اخبرها رشاد منذ اول لقاء ، ان محمود غيمة صحراوية يحرقها الفيظ ، يتشوق هنا الى نسمة تلتفه حتى يهطل فيتحد بالثرى الواعد بالخصب ، قبال ان تسوقه الرياح للعودة .. سألته ليلى :

- اذن فانت لن تمكث طويلا يا محمود ؟ ..

- سأظل لآخر لحظة بوسعي البقاء فيها هنا .

في اليوم التالي توجهها وهو وصديقه رشاد الى الكازينو .. هبط الى المياه وقد ارتدى ملابس البحر العارضة ، لحظات ثم بدأ يسبح بعدما بلغ العمق الوافي .. حينما جاز الشاطئ نحو البحر ، الفسى الاجساد مستلقية على ضفاف الرمال تحت اشعة الشمس الدافئة . حملق مشدوها في البدء : « ما كل هذه النساء الجميلات ، وايضا عاريات » .. ثم خجل من نفسه ، ففعل كالاخرين مر عاديا والتي نفسه في البحر .. « اطفئي يامواه البحر العظيمة نيران الصحراء الملتهاة في ببداء نفسي . الصحراء . ماؤها معلق بين الارض والسماء ، لا تمطر الا السراب ، ولا تثبت غير الحشائش » .. شعر وهو يستحم ،

بانه غدا اكثر سموا وطهارة . كان مقتنبا جدا وهو يتوغل داخل البحر ، بحركة الامواج المتناسقة على مداها البعيد . كان البحر ينض ، حيا ، فعلا ، نشيطا . وتخيل الصحراء في هذا الموقف بحراميتها ، ساكنها ، خاملا . « ظل الانسان يهرب من الصحراء الى البحر ، حتى يعيش ويحيا . البحر . مطر انساني هاطل باستمرار على الارض ، يتحدى عطف غيوم السماء الشتوية اوغضبها بموسم جاف » .

★

هذه المرة اختلى وسناء في زاوية بالملهى مظلمة بحمرة داكنة خفيفة .. كانت امامه تتوهج كالجمره ، وأحس انه يكتوي بها .. أخذ يشرب البيرة بسرعة ، وحينما ابدت له ملاحظتها بهذا الخصوص ، أكد لها بخفة متطايشة بانه يفعل ذلك عن قصد .. ووافقها بعد ذلك على شرب (الكونياك) .. ثم (العرق) .

انسجم تماما ، واجال بصره في اطراف الملهى فوجده يفص بالرواد ، وتناهى لسمعه ضجيج متناسق في لحن وحشي معربسد بالفرائز الملتهاة . شعر بتعاطف حار مع كل هؤلاء الناس . وتذكر الاخرين ، فشعر بالقربى حتى مع المصلين المؤمنين : « كل الناس تستحق العطف » .. وسمع سناء تخاطبه :

- حدثني يا محمود ، ما بك ساهم ؟ ..

- حدثيني انت ..

تطلعت اليه وقد كبتت حنقها منه ، لكنها شعرت تجاهه بعطف امومي . انه طفل كبير ساذج .. مالت عليه ، ووضعت رأسها على كتفه : - اهكذا اسكرتني يا محمود ؟ ..

غاب محمود عن رشده وهو يستنشق عطرها المختلط برائحة جسدها المثير ، ولفحته انفاسها الحارة ، دفن رأسه بين خصلات شعرها واخذ يتحسس بكلتا يديه جيدها وكتفيها وصدرها ، ثم وجد نفسه يحتضنها .. فكر بسرعة في نفسه بان هذا خير ما تفعله سناء ، ان تتظاهر بالسكر مع انها تسطل الف من اشباهه وتظل محتفظة بكامل وعيها .. اما هو فانه حقا قد بدأ السكر يعصف في نفسه ، فترنحت نظراته ، واهتز فكره ، ومارت دماؤه مجنونة تتراكم عبر الاعصاب المشعوذة التي تقبض على الدم ضمن حدودها مهما ثار .. وتالت الطلبات ، واستمر دفع النقود بكثرة .. رغب لو يتوقف لحظات ليفكر لماذا لا تصد سناء عنه هذا السيل الفرق من طلبات المشروبات ، لكنه شعر ان هذا سيكدر عليه استمرارية لذته وانبساطه .. ظل صامتا .. كانت الموسيقى والاغنيات تنهل الى روحه وهو يصغي ، عذبة مؤلة صافية ، كدمعة شرق بها انسان مفعم بالعذاب لدرجة اليأس الريح .. وبلغه صوت سناء كالوحي ، تمتاز فيه السخرية بالرضى :

- كنت اظنك نبيبا وانت جارنا ..

شعر تجاهها بمودة اكثر ، قبلها ، صفت عليها ، اجاب :

- ولا ازال .. انما انا اتعبد اليك يا ربة الحب الفطري الصادق . كان طيف انعام حينما خطر له هنا ، بينعد وينأى ، يلوذ هناك في اقصى الصحراء بين ومضات السراب حيث يتخلق من بؤس الوحدة واوهام النفس العطشى والرغبات المخنوقة .. وفجأة تلوح له احداهن تثبت في الصحراء ، وتزهر على ضفاف البحر .. لم تخرج الصحراء سوى العفاريات والجن ، اما البحر فخالسق الحوريات .. كل حورية مثل الاخرى . كل حورية تشتهي . تحب . تعشق . تعبد . ليس فيهن انعام ، اوليلي ، او سناء ، أو أو . كلهن حوريات . كلهن انعام . كلهن ليلى . كلهن سناء . كلهن سناء .. وتشبث بسناء وهو يردد في نفسه : « كلهن سناء » .

★

قال له صديقه رشاد ، وهما يجلسان في « بلكون » المسكن صباح الغد ، ويرتشفان القهوة :

- الصحافة اليوم تقوم مقام الادب . وان جواز للادب بعض

الاستقلال فيظل ادبا صحفيا ..

لم يجب محمود .. كان يضع بضعة كتب ابتاعها من جديد بجانبه وقد أخذ يتفحصها .. سمع رشاد يسأله : أتود ان تقرأ هنا ؟
- أشعر بحاجة الى ذلك ..

- الا تجد هذه المدينة بالنسبة اليك غامضة مثل الالفاظ والمعاني التي تكتشفها في قراءتك ؟ الا تجد انك بحاجة الى ان تسيطر اللثام عنها ! ما الفرق في ذهنك بين القاهرة وواشنطن وموسكو، وبين الموت والوجود والعدم ، وبين النفس والروح والعقل ، وبين ..

- هذا ناتج فجيعة واقعي الشخصي بالقياس الى الواقع الانساني .. كتب علينا يا صديقي ان ننمو من الداخل ونبقى خارجيا هزيلين .. واسترجع رشاد في نفسه كل ثقافته بالسائلة الجنسية ، على سبيل المثال . كلها مستقاة من الكتب . له بضعة تجارب مشوهة لا يعتمد على فحصها لعدم توفر المناخ الصحي المظمن الى نتائجها الطبيعية .. هنا بعد ان نابر مدة على معايشة النساء ايقن بأنه قد حل مشكلتهن التي كانت عنده أزمة حادة ملحة باستمرار .. كل ذرات الجسد ألفت عقله كي يطمن ..
وظن الى رشاد يحدثه ، سمعه يمضي فيقول :

- .. وهكذا لو كان بإمكان كل انسان ان يتعرف على كل شيء معاينة شخصية لاستغنينا عن الكتب ..

عجب محمود في نفسه بالذي يتكلم عنه صديقه ، سيما ولم ينتبه الى كل ما قال ، ومع هذا كان يدرك بأنه لن يخطيء حينما اجابه : - هذه سفسطة ..
رددها ثانية ، وابتسم وهو يضيف محاولا التوضيح ما وسعه ذلك :

- الانسان هو الموجود الوحيد الذي يمكنه ان يعرف الحقائق بتجريد الواقع . بالرموز ، باللفة منها بشكل خاص ، تكثف في ذهننا تبديد الوجود ، وندخره رصيذا انسانيا وفرته غنى العالم الذي صكت بمعرفته الكلمات ..
- انت تناقض نفسك يا محمود ..

اجاب بسخرية صدرت عفوية ، حاول بسرعة ان يزيلها :
- لا .. انما يجب ان لا يقيب عن بالك أهمية المعاناة .. المعاناة ، الجسر الذي يربط بين الكلمات والمعاني ، بينك وبين التجربة الانسانية المطلقة .. لكن ..
وران صمت فجائي ، أخذ رشاد يستحته ليكمل ، وحينما وجد ان سكوته قد طال قال ، انما بلهجة مملوءة بالود والتعاطف هذه المرة :
- ومع هذا فيا محمود لا زلت متناقضا . انت مثالي ، وهذا

عصر فجيعة المثالية ..

لكن محمود كان قد فوجيء بحقيقة وجد نفسه يساق اليها بدون توقع .. وشعر انه يتساءل وينكمش في الاعماق ، واحس تجسأه نفسه بالذلة وهو يخاطبها في سيرته : « لست متناقضا في تفكيري ، انما في ارادتي .. لا تتحمل روحي تيار المعاناة العالي ، ولأنهنا سقيمة فنورها ياهت . فتمثيلها الواقع ذهنيا عاجز ، وتمثيلها الذهن واقعا فاشل .. »

✱

بسرعة أوصل « تكسي » محمود للمطار ، وبسرعة ففرت به الطائرة الى بلده .. « العالم سريع للنهاية » .. واحس ان الايام التي امضاها في المدينة الكبيرة مضت بسرعة خاطفة . فرت من عمره بلصوصية دون ان تدع له أثرا يكسبه اذ يعود .. هذه مجموعة من الكتب يعود بها ..

سواء ، تركها وقد انطبعت في خياله امرأة وحشية بدون معالم ، تمتص منه حيويته الجسدية . مسخ لا هي ذات انسانية تثرية ولا هي شيء يقتنى .. وانعام ، تثير به القرف . انعام ، هذه التي مثل سناء قبل ان ترتوي . حينما هربت من لظى الصحراء اكبت على مياه البحر بشراهة مرضية . عملت في ملهى امعانا في اشتهاء الحرية ، ثم تكست رأسها وهو يستعد للسفر وبكت ترجوه ان يتزوجها وتظهر الندم على ما اسلفت .. اما انعام فمعروضة سلفا للبيع . ندم لكونه بعث لها رسالة حين بدأ زيارته . على كل هي سلبية باستمرار ولا يخشى عليها من شيء .. الحب .. غبار الصحراء الذي تثيره العواصف المجدبة .. ليلي ، الابنة التي سنلد مثلها فيما بعد سناء ، انسانية رائعة بضياعها . بعداياتها ، باخلاصها ، بعشقها . بصميميتها .. ليلي ، ابنة البحر الحرة . لا مثل لقيظته سناء الجوفاء .. يتصفح الجريدة . يضع صفحات تختصر العالم اليوم . حرب ، جوع ، قتل ، جنس ، سينما ، تلفزيون ، مواليد ، وفيات .. « اهذه هي الحياة » .. وتذكر قول صديقه رشاد له ، بان الصحافة تقوم مقام الادب . وفكر في نفسه : « نصف كلمات الانسان في الصحف ، لم يبق منها فائض للكتب الجادة » .. واستنلى يخاطب نفسه : « ومن جهة اخرى يوظف الاديب بعد تخرجه من الجامعة ، بدون ما حاجة الى تراث ادبي خاص به » .. تطلع من نافذة الطائرة وقد قرر بالمطالعة ان يحول الكلمات الى معناها مجسدا ، الى مشاهد طبيعية .. واستمر يطالع ، حتى فطن الى ان الطائرة بدأت تهبط ، كان الوقت ظهرا ، وكانت اشعة الشمس الحارة مراقة على آمام الصحراء الشاسعة .

فائز محمود

عمان

كيف تواجه الاشتراكية ، بمختلف أشكالها ، مشكلات المرأة ، على اختلاف صورها ؟

هذا هو الموضوع الهام الذي يعالجه هذا الكتاب . وقد تناول موضوعاته عدد من المفكرين والكتاب الاجتماعيين الذين اهتموا بوضع المرأة بصورة عامة ، فكتب ريزانوف عن « الشيوعية والزواج » ولينين عن « المأساة الجنسية » وبابلو عن « الفرويدية والماركسية » وتومسيك عن « مشكلات شرط المرأة الاجتماعي » وفيرا بلشاي عن « المشكلات الراهنة للمرأة السوفياتية » وسيمون دوبوفوار عن « مسيرة المرأة الصينية » وسواهم . كما ان هناك فضلا هاما يسرد رأي لينين في الحب الحر .

كتاب عظيم الاهمية يبين ما حقيقته المرأة المعاصرة من تطور في ظل الاشتراكية .

الاشتراكية والمرأة

ترجمة وتقديم

هوج طرابيشي

٤٠٠ ق.ل

صدر حديثا